رسالة الكاتب

في مصر

للأستاذ سلامة موسى

الفرق بين الكاتب وقرائه أنه هو أكثر وجداناً منهم. أي أنه يجد نفسه في أبعادها الزمنية والمكانية أكثر مما يجدون هم أنفسهم. ومهمته أن يعلمهم إلى درجة وجدانه.

مهمة الكاتب أن يرفع القارىء من الزقاق إلى الشارع، ومن الشارع إلى المدينة. ومن المدينة إلى القارة، إلى هذا الكوكب كله. مهمة الكاتب أن يملأ صدر القارىء باهتمامات هي هموم جديدة. هموم بشرية تزيد على همومه الشخصية. كما يملأ بحسرات الحياة بأن يكشف له عن ألوان من الجمال لم يكن يعرفها من قبل في الطبيعة والانسان والفن.

مهمة الكاتب أن يحمل القارىء على أن يأبى أن يحيى حياة الحشرة بهموم شخصية وضيعة: أكل وشرب ومسكن — وأن يكسبه هموماً بشرية عظيمة كالحرية والثقافة والحضارة والفن.

مهمة الكاتب أن يجعل القارىء يحيى الحياة التاريخية ويحس انه انسان عظيم له مشاركة في تغيير هذه الأرض وترقية مجتمعاتها.

مهمة الكاتب أن يقول للقارىء: أنت لست تاجراً تبيع الاقمشة أو النقول. انما أنت انسان عظيم قد احتاجت الطبيعة إلى ألف مليون سنة كي تخرجك من رحمها بعد آلاف التجارب التي لم تنجح في اخراج مثلك. أنت ثمة التطور. أنت سلطان هذه الأرض.

وبكلمة موجزة: قيمة الكاتب ومهمته أن يزيل عن القارىء هذا الذل الذي كثيراً

ما يقع فيه فينسان في عادات فكرية وعقائد تاريخية حتى يتحجر . والكاتب العظيم هو ذلك الذي يصدم قارئه فيوقظه ويرد إليه وجدانه ثم يزيد هذا الوجدان سعة وعمقاً

الشيزوفريني هو رجل مريض ومرضه هو الذهول: فالحوادث التي تجري حوله، خطيرة أو حقيرة ، لا تلفته . ولكننا نعيد إليه وجدانه وتعلقه بصدمة كهربائية عنيفة .

[الأستاذ سلامه موسى]

والكاتب العظيم هو هذه الصدمة الكهربائية لقرائه الشيزوفرينيين الذاهلين : وكلنا الى حد ما في شيزوفرينيا طفيفة . ولذلك كثيراً ما نعيش في ذهول .

◆

وأعظم ما يتهيأ به الكاتب كي يحسن حرفته ، ولا نقول كي يكون عظيماً ، هو أن يزيد وجدانه. ولذلك يحتاج الى أن يدرس المعارف والأفكار والعلوم والآداب . وجميع هذه الأشياء تزيد الوجدان . أي أنه سيجد نفسه في ميدان من الوجود أكبر وأرحب مما كان قبل أن يدرس هذه المعارف . وهو لذلك يكون أقدر على التعقل. اذ هو يرى ويحس أكثر . وهو لذلك أيضاً يكتسب الحكمة والبصيرة معاً. فاذا كتب كان ما يكتبه ثمرة لهذه الحكمة وهذه البصيرة.

ولكن هذه المعارف والأفكار والعلوم والآداب لا تشتمل على جميع الاختبارات التي يحتاج إليها الكاتب. ذلك لأن الكاتب يشتغل بشئون الناس فيجب أن يعمل أعمال الناس. ولو كان العمر يمتد حتى يتسع للكاتب ، بحيث تمر به اختبارات مهنية وأخلاقية وروحية ، بحيث يكون ملاحاً في السفينة، وضابطاً في الجيش، ومعلماً في المدرسة ، وطبيباً في المدينة أو الريف ، وسياسيًّا وصحفيًّا ، وبحيث تمر به بعض الكوارث كموت الصديق أو الحبس والحرمان أو الفقر والمرض ، وبحيث تنتابه تلك التطورات الروحية التي تغيّر عقيدته أو تقويها ، وتحرفه عن وجهته أو تثبته ، لو كان العمر يمتد لكل ذلك لكان في هذه الاختبارات ما يهيء الأديب أعظم التهيؤ لأن يكون عظيماً . لأن هذه الاختبارات تربطه بالمجتمع وتغمسه في الطبيعة وتزيد وجدانه وتبعده عن الذهول الحيواني .

ولكن بالطبع هـذه الخال محال ولذلك يضطر الأديب الى أن يستبدل باختبارات الحياة دراسة أحوال البشر والمجتمعات من الكتب والصحف ومن الناس يسألهم ويتعلم من أجاباتهم واختباراتهم .

◆

بعض الأزمنة يحفل بالكوارث فيزداد الوجدان عند الناس عامة وعند الأديب خاصة .

كان جيته الأديب الالماني يشكر الأقدار على أنه رأى في حياته حرب السنين السبع والثورة الأمريكية والثورة الفرنسية وحروب نابليون . وكان يقول إن هذه الكوارث قد زادته حكمة وبصيرة . زادته وجداناً . إذ هي زادت أبعاده التاريخية والجغرافية والروحية .

وزماننا هذا يحفل أيضاً بالكوارث والحروب . وقد نبه لذلك كثيراً من الذاهلين الا أولئك الذين يعيشون في نعاس الموت أو ينفصلون بينهم وبين اختبارات الدنيا بقواصل من التقاليد والعادات .

وهذه هي الكوارث والاختبارات العامة . ولكن الأقدار تحابي أحياناً بعض الأدباء بكوارث خاصة فيتنبهون . ويحسنون بذلك تأدية رسالتهم .

ذلك أن الكارثة الخاصة تحدث لنا توتراً قد لا تحدثه الكارثة العامة . فاذا كنا على شيء من الذكاء فان هـذا التوتر يبعث فينا غضباً أو حزناً نجعل منه مادة فنية جديدة فقراء . لأن مشكلتنا الشخصية تعود مشكلة عامة للبشر . ومأساتنا الفردية مأساة المجتمع كله .

وكاتب بلا توتر ، وبلا قلق ، وبلا جنون ، لا يساوي ثمن الحبر الذي يكتب به . ونحن نقلق ونسخط ثم نتوتر اذا كنا نجد في الوسط الذي نعيش فيه من الأخطاء والعلل ما يستحق غضبنا وتوترنا .

ومن أعظم ما يمتاز به الأسلوب العظيم للكاتب العظيم هو الغلواء . وهي لا تتأتى إلا بمد التوتر . والغلواء هي ميزة الشخصيـة العظيمة . والمثل الفرنسي يقول إن الأسلوب هو الشخصية . وما أسميه غلواء يسميه غيري تطرفاً .

ولكن نوبة القلق ، نوبة التوتر ، نوبة الجنون ، لا تلائم الكتابة .

ولذلك يحتاج الكاتب المتوتر الى فترة من الحضانة أو الاختمار يبدأ عقبها فيكتب كما لو كان شخصاً آخر غريباً . أي يكتب في وجدان وتعقل .

إن الأديب يحتاج الى البرج العاجي ولكن لا ليعيش فيه وانما ليعتكف فيه ويلجأ

نوته بعض الوقت كي يتأمل الحوادث ويفكر فيها ويتدبرها . واذا كانت السوق هي ميدان الصحفي التي يدرس فيها تتابع الحوادث فان ميدان الاديب يجب أن يشمل السوق والبرج العاجي معاً . الاولى للاتصال بالمجتمع ودراسة الاشخاص والاشياء، والثاني- للتأمل والاستنتاج .

والصحفي ينقل إلينا الحوادث فور وقوعها . ولكن الاديب ينقلها الينا بعد الاختمار والتدبر اللذين يحتاجان الى أيام أو الى سنوات .

وعالمنا في ارتباط أقطاره واشتباك أممه يتطلب من الاديب أن يكون صحفيًا يرتبط بالمجتمع ويدرس المذاهب السياسية والاقتصادية والدينية والاجتماعية التي تفشو فيه ثم ينقلها ، في برجه العاجي ، الى الشعر أو النثر ، الى الادب .

◆

الاسلوب الحسن هو ثمرة الرجل الحسن . ذلك لاننا نكتب في الكتاب أو الجريدة كما نخاطب أصدقاءنا في الشارع أو الغرفة . فاذا كنا على أخلاق حسنة فاننا لا نغش أصدقاءنا بل هم يجدون منا الصراحة والامانة والكلمة المكشوفة التي لاتضمر خبيثة . وكذلك الشأن في الكتابة لان أسلوبنا هو أخلاقنا .

هذا هو الاساس في الاسلوب . ولكن كما يكون المشي رقصاً ، وكما يكون الكلام غناء ، كذلك يمكن بل يجب أن تتصعد الجمال في التعبير وتهدف الى شيء من الايقاع حتى في النثر .

والاسلوب هو الشخص . هو الشخصية . وأعظم ما يرفع من شأن الشخصية هو ، كما قلت ، هذا الغلو الذي يلازم العظيم في عظمته . الغلو في بيرون الشاعر . في سعد زغلول . الغلو في فولتير . والاسلوب العالي هو ذلك الذي ينطوي على غلو .

ولكننا لا نستطيع أن نفتعل الغلو . ولو فعلنا لما زدنا على التهريج .

واذن يجب أن يكون الغلو أصيلاً في الكاتب . وهو لن يكون أصيلاً إلاّ اذا كان الكاتب يتوتر من المساوىء والكوارث . ثم يمحض بالتأمل هذه المساوىء والكوارث كما تمخض الدجاجة بيضها . أي يتعقل ويكتب عن روية وتدبر .

والكاتب الحسن هو الذي تكثر توتراته أزاء جي بولاق وأزاء الامبراطورية البريطانية . وأزاء عشرات بل مئات المظالم والمفاسد التي تملأ عصرنا في وطننا وفي غير وطننا .

والكاتب الحسن لا يختار أسلوبه . بل هو لا يختار موضوعه . ثم ان الموضوع يعين الاسلوب ، لأن الكاتب اذا كان مشغولاً بهموم عصره ، فانه لا يكتب عنها فقط بل يكتب بالاسلوب الذي تمليه عليه التوترات التي أحسها منها . ولذلك نحن نعرف أسلوب الكاتب من الحال النفسية التي نحس لحين نقرأ الكتاب أو عقب قراءته .

والكاتب العظيم لا يبالي بأي أسلوب يكتب . لأنه قانع بتوتراته التي تملي عليه الكلمات والعبارات . وهذا بالطبع بعد تدريب طويل وتربية ذاتية قد تأصل كلاهما في نفسه وذهنه فتعين له منهما مزاج ومنطق . وبعد اختيارات حدّت من ذهنه وفتحت بصيرته وأكسبته فلسفة ورسمت له أهدافاً .

◆

وبعد هذا الذي ذكرنا عن الأسلوب نحب أن نصل بالقارىء إلى شيء أصيل في بحثنا هذا . وهو اننا ، كي نتعمق الأسلوب ، يجب أن نعرف الكاتب ، نتعمق حياته وأخلاقه.

لقد قلنا أن الكاتب العظيم يحتاج الى توترات تحمله على الغلو. وان الأسلوب العظيم، مثل الشخصية العظيمة ، يحتاج الى الغلو . وهذا الغلو هو ثمرة التوترات : غلو في الحزن أو الفرح ، طرب الحزن وطرب الفرح ، وغلو في الحب أو الغضب ، وغلو في الاحساس بالجمال أو القبح ، وغلو في نشدان الحق أو مكافحة الباطل .

وأكثر الناس توترات هم مرضاهم وليسوا أصحاءهم . لأن السليم يستطيع أن يتحمل من المكاره والمفابح أكثر مما يتحمل المريض . وخاصة إذا كان مرضه نفسياً . إذ هو يشعر أكثر وينفر مما لا ينفر منه السليم . وهو مرهف الاحساس كأن أطراف أعصابه مكشوفة جريحة . ولذلك كثيراً ما نجد المؤلف المفكر يشكو لوناً من النيوروز . ولكن هذا النيوروز هو في الأغلب نتيجة ذكائه وليس سببه . أي انه لذكائه استطاع أن يرى أكثر مما وأى غيره . فأحس وتألم . وفاض الألم حتى صار نيوروزاً أو كاد . فكثرت توتراته ودفعته الى ادمان التفكير ثم الاختراع . ولا أكاد أعرف مؤلفاً عظيماً قد خلا من توترات المرض النفسي الذي كان يعانيه . حتى جيته أديب ألمانيا العظيم الذي يبدو سليماً في كل نواحيه لم يخل منه . وكذلك جون روسكين . أما دستوفسكي ونيتشه وتولستوي وامدريه جيد وبرنارد شو وولز فأمراضهم واضحة . وهي ترتفع أحياناً الى درجة الجنون المطلق وتنخفض أحياناً الى درجة الشذوذ .

ونعود الى موضوعنا . وهو اننا ، كي نتعمق الأسلوب ، يجب أن نعرف الكاتب ،

لتعمق حياته ونقف على تفاصيلها التي كوّنت أخلاقه وعيّنت أهدافه وخصته بتوتراته. والمؤلف، كما يؤلف الكتب التي تباع للجمهور، يؤلف أيضاً حياته. وربما تكون حياته خير مؤلفاته بل هذا هو ما نرى في طه حسين وبرنارد شو وجيته. فنحن نستنير ونتفطن حين نقرأ تراجم حياتهم أكثر مما نستنير ونتفطن حين نقرأ مؤلفاتهم.

ومن حق الجمهور القارىء لهذا السبب، أن يعرف الحياة التي عاشها المؤلف. كما أن دراسة الأسلوب تحتاج الى دراسة هذه الحياة وصحيح أن المؤلف الفنان يعود الى اختباراته الخاصة ويكتب عفو احساسه العاطفي أو وجدانه التعقلي منها. وهذا حين يخلص وحين يحس أن له رسالة. ولكنه قد يخون أحياناً فيكذب اختباراته وينكر احساسه ووجدانه معاً. ولذلك يجب أن يعرف الجمهور حياته بتفاصيلها. وإذا كان من حق الجمهور أن يعرف مصدر المال الذي يحصل عليه موظف كبير في الدولة، خفية الاختلاس أو الارتشاء، فكذلك من حق هذا الجمهور أيضاً أن يعرف مصدر الآراء والعقائد والميول التي يتجه نحوها المؤلف خفية الارتشاء أيضاً. لأن المؤلف الذي يرتشي كي يترك مبادئه هو كالموظف الذي يرتشي كي يترك واجباته. وكثيراً ما رأينا في حياتنا القصيرة كتّاباً ارتدوا وتركوا مبادئهم وكفروا بالحق وبصقوا على الانسانية.

للكاتب أسلوب وموضوع. وكلاهما يعود الى شخصيته. فمن حقنا أن نعرف المعدن الذي صهرت منه هذه الشخصية كما نعرف العوامل التي كوّنتها وعدّلتها وغيّرتها. وعندئذ فقط نستطيع أن نحلل الأسلوب ونقف على ميزاته ونربطها بأصولها.

ومما يتصل بهذا الموضوع أن المؤلفين القصصيين اليابانيين قد نشأوا على عادة قد صارت تقليداً هي أن المؤلف يروي قصة حياته أو قصص حياته، فهو بطل القصة. بدون اختباراته وينتقيها ويتسامى بها ويستخرج منها العبرة. ولكنه في كل ذلك يجعل من نفسه البؤرة والمركز.

◆

رسالة الكاتب المصري في وقتنا هذا أن يرشد وأن يكافح، فأما الارشاء فهو من حيث توجيه القارىء العربي الذي انقطعت جذوره في الشرق ولما تصل الى الغرب. وعلينا نحن الأدباء أن نوجه أولئك الذين لا يزالون شرقيين، وأولئك المترددين بين الشرق والغرب، وأولئك الواهمين بأن في الشرق روحية وفي الغرب مادية، علينا أن نوجههم جميعهم نحو

الغرب . أي نحو الحضارة العصرية . بأن ننقل إليهم الأوزان والقيم البشرية كما هي في أوربا .

وهذا التوجيه هو في صميمه كفاح . كفاح من أجل تحرير المرأة بالعمل ، وتحرير الشعب من الفقر والجهل والمرض . كفاح ضد القرون المظلمة التي لا تزال تخيم على عقول كثيرين منا وأخيراً كفاح للاستعمارية التي تفسق بالعقول وتقتل البشر .

أما هو هذا الذي نكافحه نحن الكتّاب المصريين؟

أنكافح حي بولاق . ونكافح مصر المحطمة في حي بولاق .

عندما أجول في هذا الحي أحس كأننا قد هيأنا منازله وأزقته وناسه كي نعرضها على الأديب البازغ حتى يعرف رسالته المستقبلة . وهي أن ينقل مصر من الخراب الوعر الى الحضارة المهذبة . واني لاقف بين أزقة هذا الحي وأتلبث فيها كي أملأ حواسي بما تحوي من قبح . وأني لاتأمل رطوبة الجدران وكأنها غضارين قد تمدد وقد . وأني لاحس أن الجهل والفقر والمرض لتكمن جميعها في هؤلاء السكان الذين تجردوا من كل ميزات المتمدنين . واني لاسير على ارض هي براز وبصاق وذباب قد عمت في الهواء عفناً وخموماً يعلان النفس كرباً وهمًّا . واني لاتأمل وأتشمم وأتحسس هذه الازقة ، ناساً وجدراناً ، فأحترق . وأحسن رسالة الأديب في مصر .

هذه هي الحال المصرية التي يجب علينا أن نغيرها . فاذا لم نفعل فنحن لسنا مفسرين فقط بل خونة . وحين يفر أحدنا من حي بولاق إلى التاريخ الماضي فيكتب زوجة الرشيد أو عدل المأمون أو حرب علي ومعاوية، فانه بفراره هذا ، انما يخون أدبه . وهو بمثابة الجندي الذي فرّ من الميدان . لان ميداننا جميعاً ، الميدان الأول ، هو حي بولاق ورمزيته لوطننا .

هذه هي خيانة الكتّاب . واني لاستطيع أن أذكر الاسماء لعدد غير صغير من كتّابنا بدأوا ملهمين يحدثون قراءهم عن تلك الخلجات الحميمة للقلب والعقل في دراسة الانسان والطبيعة . ثم طمسوا هذا الالهام وعادوا يكتبون عن الماضي .

لقد تأملت كثيراً في حسرة وألم هذا التخلف أو العجز أو القصور في الأدب المصري الحديث بحيث لا نجد نابغاً أو عبقريًّا يقاس بأولئك النبغاء أو العبقريين في أوربا أو في الهند . وبعد العام التأمل أجد أن أكبر الاسباب لحالتنا هو هذا التردد بين الثقافتين ثقافة الشرق والتقاليد ، وثقافة الغرب والابتداع .

وقليل من التفكير السيكلوجي هنا ينيرنا

ذلك أن الشاب حين يقف متردداً بين فتاتين يريد اختيار أحديهما للزواج يحس عنّة أي عجزاً جلبيًا . فاذا ما استقر رأيه على أحديهما زالت عنه هذه العنة .

والاشتهاء الجنسي هو في ذاته اشتهاء ذهني . والقوة الجنسية هي نتيجة هذا الاشتهاء . فاذا تردد الشاب في اشتهائه فقد هذه القوة . وإذا زال التردد عادت القوة .

والأديب الذي يتردد بين الحق والباطل ، أو بين الشرق والغرب ، أو بين الاضواء الى القوى الرجعية أو القوى التجديدية ، يحس احتباساً ذهنيًا ، عنّة ذهنية ، تصدّه عن الانطلاق الحر في التفكير . وهو لذلك لا يحسن الكتابة والتأليف حتى حين يختار هذا الشرق بتقاليده ورجعيته وهو على وجدان باختياره . لأنه يبقى في أعماق نفسه كارهاً لاختياره كأنه قد رفض الزواج من فتاته الجميلة ايثاراً لفتاة دميمة لا يحبها ولكنه يطمع في مالها .

وأدباؤنا الذين مالوا الى الشرق بتقاليده ورجعيته يحسون هذه العنّة الذهنية . بل يحسها القراء منهم ويصدون عنهم . وفي مصر ألوان عديدة من الاغراء تجر الكاتب المثقف نحو الشرق فيفقد الهامه ويحتبس ذهنه . وهو عندئذ لا يحسن حتى الكتابة عن هذا الشرق . ولكنه يسر نفسه ، مع عنته ، على الدفاع عن التقاليد والرجعية لأنه يجد في هذا الدفاع ثراء وطمأنينة ومقاماً . وضميره يهمس اليه بأنه خائن .

وقد سبق أن قلنا إن التوتر هو الشرط الأول للفن . ولا يستطيع كاتب متردد أن يتوتر ويفنو . ولذلك لا يستطيع أن يحقق النبوغ فضلاً عن العبقرية .

ولكن هناك خيانة أخرى هي تلك القوانين التي سنّها دعاة الاستعمار والاستبداد لتقييد الأقلام وأحياناً لتصفيتها . وذلك لأنهم يعرفون أن أعلى الأصوات هذه الأيام هو هذا الصوت الخافت الذي يصدر عن صرير الأقلام . اذ هو يزعجهم أكثر مما تزعجهم قنابل المدافع وخاصة في يد الكاتب الذي لا يتعب من الحديث عن حي بولاق وما يعانيه الانسان المصري فيه من قبح وشقاء .

وإن الكاتب الذكي ليحتاج في مصر أحياناً أن يخفي ذكاءه وأن يزعم أنه جاهل خشية الاستبداد الذي يحيق به ويرتب له ألواناً من عذاب الفقر والسجن والاضطهاد . ولكني مع ذلك أعتقد أن الكاتب الذي يخرج أدبه ويفر ذهنيًا ونفسيًا من حي بولاق إلى منازه التاريخ الماضي ، هو أخطر علينا من أية قيود تفرضها حكومة مستبدة وتمنع بها الكتب أو تقصف بها الأقلام .

وللكاتب المصري مشكلات أخرى ومشكلة اللغة قد تعد في مقدمة المشاكل الماثلة لنا.

ذلك أننا نعالج موضوعات عصرية بلغة غير عصرية وأنك لتجد من كتابنا من يحاولون الكتابة بلغة الجاحظ مع أنه على الرغم من براعته في عصره لم يعد يلائمنا. اذ هو كان يختار الكلمة التي تجري على السنة الفقهاء والايماءة التي تشير إلى الصحراء. وكان يخاطب الأمراء والوزراء. ولم يرسم في ذهنه جمهوراً من هذه الجماهير التي نخاطبها. ولم يعالج موضوعاً من هذه الموضوعات التي نعالجها.

ونحن اذ نخاطب جمهوراً ديمقراطيًّا يجب علينا أن نتخذ اللغة الديمقراطية. وإذا كانت كتب البلاغة لم تذكر شيئاً عن اللغة الديمقراطية فلأن مؤلفيها لم يعيشوا قط في نظام ديمقراطي، وهي، أي كتب البلاغة، لم تذكر أيضاً شيئاً عن اللغة الصحفية أيضاً لأنها ألفت قبل ظهور الصحافة.

إن كتب البلاغة في حاجة الى تصفية وإلى تجديد. بل يحق لنا أن نتساءل. هل نحن في حاجة إلى قواعد البيان والبلاغة؟ ألا نستطيع الاستغناء عنها ونعترف بالواقع وهو أن الكاتب لا يحتاج إليها؟

إن قواعد البلاغة تحليلية. والكاتب المبتدىء يؤذيه التحليل أكثر مما ينفعه. إذ هو يربكه ويعرقل حركته. وهو يحتاج إلى ما يؤلف ذهنه وليس إلى ما يحلله.

وقد نجد نحن الكتّاب من المشاق ما هو أشق علينا من الملاءمة بين لغتنا العصرية ولغتنا القديمة. لأن هذه المشكلة تسير إلى اليسر. أما مجاراة بين اللغتين، واما بابتداعات جديدة لا تبالي القديم. كما نرى أحياناً في بعض مجلاتنا الأسبوعية حيث يأخذ الكاتب من العامة الكلمة أو العبارة التي لا تؤدي معناها عباراتنا وكلماتنا العربية السمحة. وهذا كسب كبير بل كبير جدًّا.

في لغتنا العربية عيوب عديدة تعود الى تاريخها الاجتماعي. ولغة الأدب العربي هي قبل كل شيء لغة الفقه الاسلامي. ثم هي لغة الفروسية، وأخيراً هي لغة المترفين من الأمراء والأثرياء. وما عدا هذه الموضوعات الثلاثة قليل.

وذلك لأن المجتمع العربي كان مجتمعاً أميريًّا اقطاعيًّا. وكاتب اللغة في خدمة هذا المجتمع بجميع ملابساته تؤدي كلماتها أفكاره الاجتماعية. وفي الأحيان القليلة حين كان المجتمع تجاريا كانت اللغة تتغير. ولكن، لأن الوسط التجاري لم يسد قط الوسط الديني أو الحربي أو الاقطاعي، كانت العناية اللغوية الأدبية بهذا الوسط قليلة. فان الجاحظ يمثل

الوسط الديني الحربي وقد برع وتفوق. ولكن ابن بطوطة، كان من حيث لا يدري، يمثل الوسط التجاري. ولم يبرع.

وفي لغتنا لذلك تبذخ الأمراء والأثرياء والمترفين. ولكنها خالية من كلمات التفطن لمأساة الفقر أو عيش الفلاحين أو الوجدانات الجديدة التي أثمرتها النظم والمجتمعات الديمقراطية. فهي لغة يقنع بها رجل مثل صاحب الفضيلة الشيخ محمود أبو العيون لأنه يجد في كلماتها كل ما يحتاج إليه من المعاني الشرقية التي في ذهنه. ولكن رجلاً مثلي يحفل ذهنه بالمعاني الأوربية والمشكلات العصرية وينبعث بوجدان ديمقراطي، لا يجد فيها حاجاته التعبيرية والفنية. ولذلك اضطررت أن أذهب الى تأليف عشرات من الكلمات التي جرت على أقلام الكتاب، في حين لم يحتج هو قط الى تأليف كلمة واحدة جديدة.

والكاتب المصري في ظروفنا الحاضرة محتاج الى أن يذكر أن ما سميناه «نهضة» في ١٩١٩ انما كان نهضة سياسية تهدف إلى الاستقلال فقط. ومع أننا لم ننته الى الآن الى نهاية حسنة مطمئنة بخروج العدو من أرض الوطن، ومع أن هذه النهضة السياسية لا بستها بعض نتائج من التحرير الاجتماعي، مثل سفور المرأة وتعليمها والاتجاه نحو الصناعة، مع كل ذلك يجب أن نعترف أننا أفسدنا معنى النهضة كما يفهمها الأوربي الذي عرف من النهضة الأوربية منذ القرن الرابع عشر الى القرن العشرين أنها تحرير الشخصية البشرية من التقاليد والعصبيات. وانها اقبال على العلم التجريبي. وانها فصل الدين من الدولة. وانها دعوة للانسان كي يأخذ مصيره في يده ويتسلط على القدر بدلاً من أن يخضع للقدر. وانها انتزاع للخير من الطبيعة واخضاعها وليس الانتظار كي تسدي اليه الطبيعة فضلها وبرها.

هذه هي المعاني التي لم تفهمها من النهضة في سنة ١٩١٩. ومن هنا هذه الانتكاسات الرجعية السياسية والاجتماعية التي بلوناها في الثلاثين سنة الماضية. وقد فهم محمود معنى النهضة بأوسع وأعمق من فهمنا. كما يتضح ذلك من الغاء النجاسة. والمساواة في الميراث بين الجنسين. ومنح المرأة حقوقاً دستورية لا تقل عن حقوق الرجل، وفصل الدين من الدولة والأديب المصري محتاج الى أن يصحح هذا النقص في نهضة ١٩١٩.

◆

وأخيراً رسالة الكاتب في مصر عامة وخاصة.

فأما العامة فهي أن يجعل الأدب وثيق الصلة بالبشرية. بحيث يحرص الكاتب في القارىء حب البشر والطبيعة والفن والثقافة لأن الأديب الحق هو صديق الانسان لا يعرف

التعصب أو العنصرية . ولا يقول بالقسوة أو الحرب . والأديب الحق هو الذي يعرف أن مهمة الأدب، مثل مهمة الفلسفة، تغيير المجتمع بحيث يحمل القارىء على السخط ثم الرغبة في التغيير . والأديب الحق هو الذي يطلب المزيد من الحرية . فهو لذلك لا يمكن أن يكون ناشيًا أو يرضى بالحكم العسكري الذي يقيد أو ينتقص الحريات . والأديب الحق هو الذي يتألق ويعين لنا مأربًا نبيًا في جميع نشاطنا .

وأما رسالته الخاصة فهي خاصة ، لأنها تعالج شأنًا من شئون مجتمعنا المصري الحاضر مثل تعجيل التطور الاقتصادي نحو الصناعة . ومثل المساواة بين الجنسين ومثل التعليم الجماني العام ومثل التأميم .

◆

وأخيراً على الأديب أن يذكر أن في العالم فريقين

فريق الآراء أو العقائد الآفلة التي تقول بعجز الانسان عن محو الفقر وعن التسلط على مستقبله . وهذا الفريق بتشاؤمه يؤمن بأن الطبيعة البشرية سيئة في أصولها وانها تحتاج الى القيود والحدود . ولذلك كثيراً ما ينساق إلى الفاشية . وإلى القسوة حتى في تربية الصغار أو معاملة المجرمين وإلى سوء الظن بالمرأة والحد من حريتها . وهذا الفريق يؤمن بالوراثة . وانها هي العامل الأول في تكوين الانسان وفي تعيين كفاياته وانها جامدة لا تتغير . وكثيراً ما يرفض التغير ويخشى المستقبل وينكفىء الى الماضي .

وفريق الآراء أو العقائد البازغة التي تقول بالايمان بالمستقبل . والجرأة على اخراج التطور البشري (فضلاً عن التطور الحيواني والنباتي) من يد الطبيعة إلى يد الانسان . وهذا الفريق يؤمن بأن الطبيعة البشرية حسنة لا تحتاج إلى القسوة . وهي لدنة تتغير بالوسط الحسن . وان تراثنا من الطبيعة ليس من الجمود بحيث يمنع التغير والتطور . وان موقفنا السياسي هو موقف الحرية والمساواة للمرأة ومحاربة التفريق العنصري أو الديني . وتعجيل الاشتراكية البازغة .

والأديب المصري البصير يجب أن يقف في صف هذه الآراء البازغة ويستعجل المستقبل بدلاً من أن يتعلق بالماضي .

الرئة الحديدية [1]

للأستاذ عوض حبيدي

جاء في برقية من لندن، نشرها المقطم في ١٦ مايو سنة ١٩٥١ أن مصر قد عقدت صفقات هناك لشراء رئات من الحديد لمستشفيات الحكومة. وسيجري ارسال اثنتين منها في الحال. وسيصدر بقيتها في خلال العام القادم.

فيلذ بي اذن وصف هذه الرئات، وشرح منافعها لقرائنا. وذلك نقلاً عن مؤلف حديث لعالم مشهور من الانكليز، وعن غيره من المصادر. واليك ما قيل في هذا الموضوع. الرئات الحديدية هي المستعملة لوقاية حياة المصابين بمرض شلل الأطفال، أو لاطالة حياتهم أحياناً مدى بضعة أيام فحسب. والمعروف أن هذا الداء، من أدواء الحبل الشوكي « النخاع » ويتولد أولاً في مخ المصاب به. ويتطرق منه إلى تجويف سلسلة ظهره حيث ينجم عنه فصل زوج من أعصابه، وذلك في كل مفصل من مفاصل عظامه.

وعلى هذا النمط، ينشأ من هذه العلة قطع الصلة بين مخ العليل وعضلاته. وقد سمّي بهذا الاسم لأنه ينتاب الصغار عادة. وربما يصاب به الكبار أيضاً. وأشهرهم الرئيس الراحل — روزفلت — طيب الله ثراه.

وتقتصر الاصابة الحقيقية به، على الساقين أولاً. واذا اشتد المرض، وجاوز الحبل الشوكي صُدْغاً، شلت عضلات الذراعين والصدر والحجاب الحاجز « العضلة التي تفصل الصدر عن البطن » أيضاً.

فاذا شاء المريض أن يملأ صدره بالهواء، حرك أضلاعه وقبض الحجاب الحاجز،

---

(١) الكاتب — أنظر مقالاً عن « العلم والعلماء الموتى » بالمقتطف ابريل سنة ١٩٣٠

لكي يخفض الكبد والمعدة ، قصد توسيع الصدر لذلك الغاية أي أحداث التمدد في الرئتين اعترضه الشلل التام الحاصل في التنفس ، وهو قتال بلا هلك .

ومن أعجب الأمور ، أن تقلب أهمية في الجسم تعادلها في الرئتين تماماً . ولكنه لا يعتريه الشلل أبداً بهذه الوسيلة . اذ يظل ينقبض ولو انقطعت عنه الأعصاب المتصلة به كلها . بيد أن العضلات المستعملة في التنفس ، تستعمل أيضاً لأغراض أخرى مثل التكلم . ولا مناص لها من الخضوع لسيطرة المخ .

أجل إننا قرأنا قليلاً ، على وباء شلل الأطفال . على حين نطلع على مقالات مسهبة في الرئات الحديدية . وذلك يرجع بعضه إلى أن أخبار علاجه الناجع ، أحب للناس من أخبار الوقاية منه . لأنه داء عياء قلما ينجع فيه دواء .

والسبب الآخر كونه يتفشى بالتنفس ، ولاسيما في المدارس الخاصة بتلاميذها. وتعد الرئة الحديدية أحدث الوسائط التي اخترعت وأنجعها للتنفس الصناعي ، الذي يتوسل به إلى انقاذ الغرقى ، من الموت الظاهري . وكانت الوسائل الابتدائية التي أخترعت لهذه الغاية في سنة ١٧٧٤ تقوم برضع منفاخ في أحد خيشومي المصاب ، مع وجوب اغلاق فمه وخيشومه الآخر « فتحة أنفه » .

فتبين أن تلك الطريقة لم تكن مجدية كما يرام . وفي القرن التاسع عشر ، أخترع ثلاثة من علماء الفيزيولوجيا الانكليز ، وهم : — مارشال هول ، وهوارد ، وسيلفستر ، وسائل لعلاج هذه العلة ، كانت أنفع كثيراً مما سبقها من الوسائط الطبية . وكانت تعمل من دون أجهزة . ثم أبطلت إذ حلت محلها طريقة شافر Schafer التي أخترعت في مدينة إدنبرة في سنة ١٩٠٣ . وهذه كانت تقضي ببطح [1] الغريق الظاهري المراد اسعافه . ثم يجثو منقذه منفرج الساقين ، فيضغط الأضلاع السفلى للمصاب ، ضغطاً يبلغ ١٣ مرة في الدقيقة . وكانت هذه الطريقة أقل ضرراً للمصاب ، من ضغط مقدم بدنه . كما كانت تقضي به طريقة هوارد . وانما كان عيبها استحالة مواصلتها أياماً عدة إلى النهاية .

أما الطريقة الميكانيكية الأولى ، المتواصلة العمل فقد اخترعها براج Braze . وهو الذي صار فيما بعد ، رئيساً للجمعية الملكية البريطانية ، وذلك بالاشتراك مع زميله بول . وهذه تسمى المنبض Pulsator . وهي تؤلف من كيس يضغط الصدر والمعدة . ضغطاً منتظماً يفيد فوائد جليلة في حالات الشلل الجزئي .

(١) الطرح على وجهه

ومخترع الرئة الحديدية ، عالم أمريكي من علماء الفيزيولوجيا اسمه درينكر Drinker وهي أسطوانة فولاذية ، يرقد فيها المريض ، حيث يتغير ضغط الهواء فيها ، اثنتي عشرة مرة في الدقيقة . ويبرز رأسه منها ، عن طريق نفق مطاط مثبت بها . وعند مايشتد ضغط الهواء الواقع على جسمه في تلك الاسطوانة الفولاذية ، أكثر منه حولها . يطرد ذلك الهواء من رئتيه . وحينما يقل الضغط الهوائي الواقع على جسده عنه في خارج الاسطوانة نفسها ، تتمدد رئتاه مرة أخرى فيجذب اليهما الهواء . وبهذه الطريقة يتاح إعطاء المريض ، الطعام والشراب اللذين يحتاج اليهما . ولكن في هذه الحالة ، يجب من وقت الى آخر ، دخول إحدى الممرضات في الاسطوانة الفولاذية لتؤدي للمصاب سائر لوازمه .

ومما ينبغي ذكره في هذا المقام ، أن نجل مليونير أمريكي ، عاش على هذا الاسلوب ، ردحاً من الزمن ، وما زال حيًّا يرزق . وذلك في جهاز من هاتيك الأجهزة . وقيل إنه استرد سيطرته على عضلات تنفسه . وما من شك أن الرئة الحديدية لا تقوم مقام الرئتين الطبيعيتين . وانما تؤدي عمل عضلات التنفس . وبما أن القلب مضخة كالرئتين ، فيقضي نظريًّا قيامه مقامهما . إذ هو وعاء ذو تجويفين مزدوجين ، يعمل عمل المضخة ، بتعاقب انبساطه وانقباضه نحو ٧٥ مرة في الدقيقة الواحدة . وفي التجويف الأيسر منه ، يجتمع الدم الأحمر القاني ، المملوء بالغذاء المستخلص من الطعام الذي نأكله ، وبغاز الاكسيجين الذي نستنشقه مع الهواء . وفي التجويف الأيمن (الأذين) الدم الأرجواني القاتم الممتزج بغاز الحامض الكربونيك ، وغيره من النفايات والفضلات التي تفرزها أجزاء الجسم كافة على أثر انتهاء أجلها . فيندفع ذلك الدم القاتم الفاسد من التجويف الأيمن الى الرئتين ليتطهر . ثم يعود منهما نقيًّا قرمزي اللون ، الى التجويف الأيسر (البطين) حيث يندفع الى شريان كبير (الأورطي) . ومنه يتوزع على الأوعية المتشعبة في أطراف الجسد جميعها .

وقد تم فعلاً قيام القلب بعمل الرئتين ، وذلك في التجارب [1] التي جربت في الحيوانات غير أن العقبة الكأداء التي اعترضت المجربين كانت تجمد الدم عند ما يلامس المعدن أو

(١) روت إحدى جرائد الهند في برقياتها من نيويورك ، في أول مايو سنة ١٩٥٠ النبأ الآتي : — لن يمر أكثر من عامين قبل أن يمكن الاطباء تركيب أجزاء من الدجاج الكيمائية في القلب البشري ، عوضاً عن صماماته التي يفتك بها المرض . وقد جربت التجارب في بعض الكلاب . وركبت صمامات من الدجاج الكيمائية في قلوبها ، ولا تزال حية الى الآن . وهذه الصمامات على شكل اسطوانات صغيرة توضع في الدم فتحركها عضلاته الحرة المطربة لاداء وظيفتها . ويقال إنه لا خطر في اجراء الجراحة اللازمة لتركيبها .

الزجاج أو الكاوتشوك أو أغلب السطوح الأخرى ويستطاع منع تجمد الدم، بحقن المصاب بمواد معينة . وإذا تجمد الدم تمكن ازالته بالتشريط . ومع ذلك يتوقع العلماء أن معضلة القلب الصناعي ، ينتظر حلها في الأعوام الخمسين القادمة . وعليه يتمتع أبناء بعض القرون المقبلة ، بالقلوب المصنوعة ، كما يستمتعون في هذا الزمن بالأسنان المصنوعة. وقد نجح العلماء حتى الآن نجاحاً باهراً في الاستعاضة عن الأعضاء الطبيعية التالفة التي تؤدي وظائفها ميكانيكيًا بأخرى مصنوعة مثل الأسنان والسيقان ، أو نظريًا كعدسة العين . كما انهم موشكون على ابدال الأعضاء الجسمية التي تؤدي الوظائف الكيميائية كالغدة الدرقية ، بغيرها من صنع الانسان . وذلك لأن القواعد الهيئة الخاصة بالأعمال الميكانيكية ، وعلم البصريات ، قد تم اكتشافها في القرن السابع عشر . كما اكتشفت المبادىء الكيمائية في القرن التاسع عشر . ولو سمحت الظروف الاجتماعية بمواصلة تقدم العلوم ، لأصبح في وسعنا الانتفاع بالأكباد والمعد وغيرها من الأعضاء المصنوعة ، كانتفاعنا بالنظارات مثلاً . وكذلك إذا استمر في الوقت عينه ، تقدم علم الطب الوقائي ، قل اقبال المصابين ، على استعمال الاعضاء المصنوعة التي أشرنا اليها آنفاً » .

وبعد كتابة ما تقدم نشرت جريدة المقطم الخبر الآتي فأردنا اثباته فيما يلي اتماماً للفائدة. تقول وكالة الأنباء العربية من نيويورك إن الطب قد أماط اللثام عن أعجوبة ، هي صنع قلب من زجاج يحل محل القلب البشري ويعمل عمل الرئتين . ويستعان به عند القيام بالجراحات الخطيرة ، على اراحة الأعضاء الأصلية . وصمم هذا القلب الزجاجي ، وصنعه جماعة من العلماء يشرفون على معهد فلز لدراسة دورة الحياة . وهذا المعهد في إحدى مدن ولاية أوهايو الأمريكية .

والجهاز الجديد من البساطة بحيث يستطيع صنعه أي مهندس من المشتغلين بالمعامل . ويبلغ وزن ذلك القلب الزجاجي أربعة أرطال انكليزية . ولا يزيد ثمنه على ٢٠ جنيهاً انكليزيًا . ويشتمل على مضخة تعمل عمل القلب . وفيه مغذٍ للاكسجين يقوم مقام الرئتين وفي الطاقة وصله بالدورة الدموية ، وذلك من عروق الساق . فينقي الدم وينفث الاكسجين ومن ثمة ينطلق الدم الى أحد الشرايين . وقد أمكن بهذا الجهاز حفظ الحياة ، لكلب كبير أكثر من ساعتين ، ظل القلب في خلالها ينبض تنفساً عاديًا . ونبض القلب بواسطته.